نُور الفَجر

لشاعر الأردية شيخ محمد إبراهيم ذُوق
(١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م - ١٢٧١هـ/ ١٨٥٤م)

ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم

ولد «شيخ محمد إبراهيم ذوق» سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م، وبدأ تعليمه في أحد الكتاتيب بمدينة دهلي في الهند، ظهرت موهبته الشعرية في فترة مبكرة من حياته، وقام بمراجعة أشعار الامبراطور بهادر شاه ظفر آخر سلاطين الدولة المغولية في الهند وتنقيحها، ولقب ذوق بملك الشعراء وخاقاني الهند. ويقال إنه ترك أشعاراً كثيرة ضاع معظمها أثناء الثورة التي قامت ضد الانجليز، فقام تلميذاه «محمد حسين آزاد» و «حافظ غلام رسول ويران» بجمع بعض أشعاره، وترتيب ديوانه الذي ضم ١٢٠٠٠ بيت من الشعر، منها ١٥ قصيدة ومثنوي «مزدوج» غير كامل.

كان «ذوق» شاعراً حساساً، اتصف بالورع والتقوى، وأحب اللغة الأردية حباً ملك عليه مشاعره وأحاسيسه، فجاءت أشعاره رائعة، خاطب فيها الإنسانية جمعاء، وعبر فيها عن زمانه بصدق، فجاءت أشعاره مرآة لعصره، وقد استخدم الشاعر الرمز في شعره للوصول إلى هدفه، وهذه ترجمة لقصيدة جعلنا عنوانها «نور الفجر» فالشاعر بعد أن كاد اليأس أن يحطمه أنقذه صوت أذان الفجر فذكره بربه وبرسوله الكريم، فعاد إليه الأمل والرجاء، وملأ نور الإيمان قلبه.

نور الفجر

ماذا أقول - يا ذوق - عن
أحوال ليالي الهجر؟
ليالٍ لحظاتها مرت
كأنها مائة شهرٍ من بعد شهر
ليلةٌ، واحدةٌ، لم تمض دون
أن تُظلّها
ظلمةُ حظي الأسود
بالسوادِ والقهر
وشموعي حظُّها من الحزن
لم يكن بقليلٍ
فتساقطت حباتُ عَرَقِها
ومضْت كالنهر
ورحتُ أردِّدُ فزعاً
وأتطلَّعُ للأفلاك
كغريقٍ في بحر:
أين أنا؟ وأين أمنياتي
التي كانت؟
هل ضاعت بعد أن ملأ
الحقدُ قلبَك
ضاعت كالبَخْر
في ستارةِ الظلمةِ قسوتَ عليَّ
ولم يَدْر أحدٌ بالأمْر
لكنَّ قلوب أهل الحي
تقطَّعت
من ضجيج دقاتِ قلبي

وراح يقيمني حيناً اضطرابي
ويُقعدني حيناً ضعفي
قال حين أصاب القلب ما أصاب:
آه؟ كم من إسارٍ حطَّم الماس؟!..
قالبُ الروحِ لم يتحطمْ يوماً بوصلِ
بينما الفراق أضاع الروحَ
دونَ طعنة نَصْلِ
رأيتُ ورأيتُ ولكن لم أر
ولو للحظةٍ طلوع الصباح
من طلعته البهية
فحدَّثني القلبُ وقال:
هذا ليلُ الهجرْ
ويقيناً
لن تبقى أنفاسُك للفجرْ
وهكذا
رُحت ألْعقُ دموعَ الأسى
وأرتشف الحزن
وجلست
أكفكفُ الجراحْ
وأتطلَّع حواليَّ
لعلي أجد من يحملُ المصباحْ
من يرتِّل لي «سورة يٰس»
حتّى تخرج الروح في سكون
دون نواحْ
أتطلَّع حواليَّ، أتساءَلُ:
ألا يزالُ في العمر بقيّة؟!

ثم كانت الإرادة الإلهيّة
أبقَتْني على قيدِ الحياة
ربِّي كتب لِيَ النجاة
إذ فجأةً تناهى لأسماعي
صوتُ مؤذن
يُكبِّر، يُردِّد
حيّ على الصلاة
في بيتٍ من بيوت الرحمن
يا لله
بشارةُ صبحِ الوصلِ
واتَتْني
فعانَقَتْني الفرحةُ
والدنيا بذراعيها ضمَّتْني
يا لها من سعادةٍ
حين يصدَح صوتٌ بـ «الله أكبر»
فها هو ذا طربُ السرورِ يُناديني:
تَفكَّرْ... تَفكَّرْ..
ما أسعدَك أيها المؤذن
فقد رفعتَ في الوقتِ المناسب
النِّداء الربَّانيّ
فَأَنقذْتَني من هَمي وأشجاني
صوتُك العذبُ حَمل لي
صورَة مكة والمدينة
فأيْقَظني مِنْ غَفْلَتي
وأَحْيَاني

الاتجاه الإسلامي في شعر السنوسي

بقلم / محمد بن سليمان القسومي*

اكتسب محمد بن علي السنوسي[1] منزلة أدبية رفيعة بإنتاجه المتميز، فهو شاعر مطبوع يعد في الطليعة من شعراء المملكة العربية السعودية. أشاد بشاعريته جملة من النقاد والكتاب، و«لقد كان دخوله في حظيرة شعراء العصر السعودي الحاضر مديناً لعدة أمور، منها جِدُّه في مطالعة كتب الأدب، وحفظُه للشعر قديمه وحديثه، يضاف إلى ذلك القدوة الحسنة في عالم الشعر المعاصر التي هُيئت له، التي يمثلها والده الشاعر العالم (رحمه الله)..، وشعر محمد بن علي السنوسي ذو انطباعات قوية ساحرة..، ولذا كانت مجلة المنهل «قد لقبته بشاعر الجنوب»[2].

والحديث في هذه المقالة عن الاتجاه الإسلامي في شعر السنوسي بوصفه جانباً من جوانب ذلك النتاج المتميز، فالمتابع له يلاحظ تجلي الحس الإسلامي في جل الموضوعات الشعرية التي تناولها في قصائده، فهو «شاعر قضية؛ ذلك أن نبرة الاستياء لا تخفت في شعره، والمضمون الإسلامي محتوى يبدو في [جل] قصائده، وإسهاماته في المناسبات بعامة يحمل هذا المضمون، وفي الأعمال الإسلامية ينفرد المضمون الإسلامي بالمحتوى، محاولاً تركيز الدلالة، وتحديد المسار»[3].

فحديثه عن الجزيرة العربية دعوة الى تحسس مواطن الطهر فيها، واستلهام الرشد مما يشيع في جوها من أشعة النور الإلهي:

هي الجزيرةُ فاقبسْ أيُّها السّاري ... هُدًى من البيت أو نوراً من الغار
واستلْهِمِ الرُّشْدَ من آي ومن سورٍ ... وضَّاءةٍ وأحاديثَ وآثارِ[4]

لقد سرت في أجواء الجزيرة العربية نسمة علوية مباركة، أحالت صحراءها المحرقة نوراً، يهدي الناس، فإذا الهجير نسيم عليل يغشى القلوب، فيبل صداها، وإذا النور يشع في أرجاء المعمورة، ويزداد تألقاً بخير خلق الله، وإذا شاعرنا السنوسي يقول مفتخراً:

من الجزيرةِ من أرضي ومن بلدي ... تألقَ النُّورُ نُورُ الحقِّ والرَّشَدِ
ومن رُباها رُباها الطاهراتِ ثرًى ... تنفَّسَ الصُّبْحُ من بدرٍ ومن أُحُدِ
نورٌ تألَّقَ من نُورٍ فرَقَّ به ... قلبُ الحياةِ وبَضَّ الصَّخْرُ بالبَرَدِ
وفاض عبرَ شعوبِ الأرضِ مندفعاً ... يُحْيِي القلوبَ ويَشْفِي ثَغْرَ كُلِّ صَدِي
جرى فأخصبتِ الدُّنْيا نَدًى وهُدًى ... تمازجا كامتزاجِ الرُّوحِ بالجَسَدِ
وأَشْرقتْ بابنِ عبدِاللهِ وائتَلَقَتْ ... رسالةُ اللهِ زاهٍ نُورُها الصَّمَدِي
محمدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ قاطبةً ... خَلْقاً وخُلْقاً على السَّراءِ والنَّكَدِ[5]

خلق قويم

وأخذ السنوسي يدعو إلى تمثل ذلك الخلق القويم الذي كان عليه النبي المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، من خلال رسمه الشخصية الإسلامية في تعاملها مع كل شأن من شؤون الحياة. ولعل السنوسي قد أدرك أن المجتمع الإسلامي في هذا العصر

حس إسلامي بارز في جوانب أعماله الشعرية

(*) محاضر في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

أحوج ما يكون إلى مثل هذا اللون من الشعر، لتعدد الثقافات الوافدة على مجتمعنا، وحاجة المجتمع إلى تذكيره بالخُلُق الإسلامي المثالي، كي لا تطمس تلك الثقافاتُ حصيلته من أخلاقه الإسلامية المتوارثة.

يقول السنوسي على لسان المسلم المفتخر بسلوكه المثالي:

أتحاشى الشَّر جَهْـدي فـإذا ... لـجَّ في عَسْفـي تحدَّاهُ اعْتِسافي
خُلُـقٌ ورٌ ثَنِيْـهُ أَحْمَد ... فجـرى مِلءَ دِمـائي وشَغـافي
أنـا جـارُ الجارِ من كلِّ أذى ... وصـديقُ الصِّـدْقِ في كلِّ خِـلافِ
وأخـو الإنصـاف لا أرضى بـه ... بـدلاً في كلِّ ودٍّ وتَجافِ
وحليفُ الحقِّ أختـارُ اللَّظى ... مسلكـاً فيـه على خَضْرِ الضِّفافِ
...مسلمٌ للـه وجهي ويـدي ... ولسـاني وغُـدُوِّي واعتِكـافي
فـإذا عـاهـدتُ قـدَّمْتُ دمي ... فِـديـةً للعهـدِ من كل انحـرافِ
وإذا حـدَّثْتُ أصغيتُ أخي ... كلَّ مَسْتُـورٍ ومَنْظُـورٍ وخـافِ
وإذا أكْـرَمْتُ جـاوزْتُ المدى ... وجـرى السَّيْـلُ بِـرِسَـابٍ وَطـافِ
وإذا حـاربْتُ كـانت غـايتي ... نُصرةَ الحقِّ بِصِـدْقٍ وعَفَـافِ
وإذا سَـالمتُ سـالمتُ على ... مثلِ ضَـوءِ الشَّمْسِ في جُـرْدِ الفَيـافي(٦)

ويحث السنوسي على الزهد في الدنيا، مذكراً بالآخرة، داعياً الى الإعداد لها، فما الحياة الدنيا إلاّ جسر يعبره الناس إلى لظى جاحم أو نضرة وسرور، فبالأعمال يتفاضل الناس، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والسنوسي يريد من ذلك كله أن يجنب أفراد المجتمع الإسلامي مسار الشر، ويقربهم إلى جادة الصواب، بالتذكير ببعض المبادىء الإسلامية، وحثهم على العمل الخيِّر، والاستفادة من دروس الحياة:

أخي إنما الإسـلامُ بـرٌّ ورحمةٌ ... وعطـفٌ لـه في راحتيك عَبِيْرُ
ودنيـاكَ جِسْرٌ في الطـريق إلى الهُدى ... ففكِّـر إلى مـا ذاغـداً ستصيرُ
فقـدِّم إلى أُخـراكَ مـا شئتَ إنـه ... لظـىً جـاحـمٌ أو نضرةٌ وسرورُ
تُعلِّمنـا الـدنيـا فننسى دروسهـا ... ونلهـو وعنـد الامتحـانِ نُشُـورُ
حماقـةُ طبع آدميٍّ وغفلـةٌ ... تَعـاقبَ أجيـالٌ بها وعُصُـورُ
مضتْ مُنْـذُ قـارُون بنـا وحيـاتُنـا ... تـدورُ على أهـوائهـا وتسيرُ
وأنـتَ مـلاقِ كلَّ شيءٍ عَملتَـه ... جـزاءً وفـاقـاً والحسـابُ عسيرُ(٧)

هكذا كان السنوسي يمارس الدعوة إلى دين الله بالكلمة الطيبة، والحكمة والموعظة الحسنة، متمثلاً قول الله سبحانه وتعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...»(٨).

دعوة إلى تمثل الخلق القويم في الشخصية الإسلامية

وبعد أن مارس هذا السلوك عملياً، قدم للمسلم الداعية ما يجب أن يتعهده في سلوكه، فحشد مجموعة من الصفات التي كان يتمثلها الرسول القدوة (عليه أفضل الصلاة والسلام) حاثاً الداعية المسلم على الاهتداء بها ليكون أنموذجاً حسناً للسلوك الإسلامي القويم:

أخي المسلم الـداعي إلى الـرُّشْـدِ والهُدى ... حَـرِيٌّ بـداعي الـرُّشْـدِ أن يكُ أرْشَـدا
لقـد طـاب مسعـاك الحميـدُ فـلا تكن ... عنيفـاً فإن العُنْفَ يُغـري التَّمَـرُّدا
وكن هـادئاً في قـولـه وفعـالـه ... رفيقـاً فإن الـرفقَ مـا زال أحمدا
وصيـةُ طـه المصطفى و هُـوَ قـدوةٌ ... لكلِّ دعـاةِ الـرُّشْـد شيخـاً وأَمْـرَدا
فخـذْ بِيَـدِ الغـاوي ومهِّـد سبيلَـه ... إلى الـرُّشْـدِ يَمْشي مستقيماً مُسَـدَّدا
وبَشِّـر ويَسِّـرْ فـالحيـاةُ مفـازةٌ ... دليلُ الـوَرى فيها هـو الـدِّيْنُ مُـرْشِـدا(٩)

السنوسي رسم للدعاة شخصية مثالية تحتذى

ولم يكن السَّنوسي من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، بل كان - كما شاهدنا في المثالين السابقين - يمارس العمل على النهج المرتضى ثم يدعو الى اقتفاء هذا النهج. وهو كسائر البشر، تلم به عوارض الزمان، وتغشاه مشاعر غريبة، وتقذف به تأملاته إلى سبل لم يعتد ارتيادها، فإذا تفرقت به السبل، وأخذ تيار مشاعره يحتدم لم يجد بداً من الإفصاح عن حيرته بالتساؤلات علّه يجد مخرجاً، فلا يملك إلاّ أن يردد:

مِن أيّ قاعدةٍ وأيّ رصيفِ ... تجري سفينُ مشاعِري بحروفي
إنْ قُلْتُ من قلبي فقدْ عَصَرَ الأسى ... قلبي وسالَ على يديّ نَزيفي
أوْ قُلْتُ من أدبي فقد لفحَ اللَّظى ... أدبي وغادرَهُ بغيرِ رَفيْفِ
أو قُلْتُ من نظرِيْ فَقَدْ غَشِيَ القَذَى ... نظري بسودِ (نوائبِ) وصروفِ
أو قُلْتُ من فِكْرِيْ فَقَدْ جَرَحَ الهوى ... فِكْرِيْ بِسُمْرِ رُؤىً وبيضِ طُيُوْفِ
أو قُلْتُ من سَمعي فقدْ صَكَّ الرَّدى ... سمْعي بِقَصْفِ (رَوَاعِدِ) وصُرُوفِ
أو قلتُ من طَبْعي توقَّفَ مَرْكَبِي ... أأسِيْرُ والتَّيارُ غيرُ حَلِيْفِ (١٠)

لكنه بروحه الإسلامية يجد حلاً لتلك التساؤلات، فلا يذهب بعيداً، بل تقوده عاطفته الإسلامية إلى الدين الحنيف، ليجد سكينته، وحينئذ يعود لممارسة دوره التوجيهي:

لا لن أضِلّ فقدْ وَجَدْتُ سَكِيْنَتي ... في الدِّيْنِ وهْوَ دليلُ كلِّ كفيفِ
فانضحْ نُهاكَ بهِ وقَلْبَكَ إنّه ... رِيُّ الصَّدِيّ وجَنَّةُ المَلْهُوفِ
واجعله نَهْجاً في الحياة وواقِعاً ... تحياه لا كُتُباً وراءَ رُفُوفِ (١١)

والإيمان الصادق نور للقلب، وشفاء للبدن، ودرع واقٍ من كل سوء:

يا خليلي الدينُ نورُ القلو ... بِ وطبيبُ الحياةِ أيُّ طبيبِ
لا تَدَعْ للأسى إلى قلبِك الشّفـ ... ـافِ درباً ولا تَلِنْ للخطوبِ
كم رَأيْنا وكم سَمِعْنا فَدَعْ قَلـ ... ـبَكَ يرْتاحُ من عناءٍ عجيبِ
وَدَعِ الفلسفاتِ واستلْهم الإيْـ ... ـمانَ وانضحْ به جفافَ النُّضُوبِ (١٢)

وإحساس السنوسي بعظمة الخالق سبحانه وتعالى لا يكاد يفارقه وهو وثيق الصلة بربه عند كل أمر يَحْزُبُهُ، فقد أجرى عملية جراحية لعينه، وأمام أجهزة الطب، والأطباء المهرة، راح يناجي ربه يسأله اللطف بعينه:

يا إلهي أَسْلَمْتُ للطِّبِ عيْنيّ ... وأنتُ الطَّبيبُ فالطفْ بِعَيْنِي (١٣)

وقد ظلت روح الشاعر المسلم مصاحبة لشاعرنا في إبداعاته الشعرية، نظر إلى نهضة بلاده، وما تتمتع به من أمن وطمأنينة رأى أن كل ذلك نابع من تطبيق الشريعة الإسلامية:

ننامُ ملءَ جُفُونِ اللّيْلِ في دَعَةٍ ... والأرضُ مِنْ حَوْلنا قدْ شَفَّها الأرَقُ
حُكْمٌ على الأمْنِ والإيْمانِ مُرْتكزٌ ... لا الزَّيْغُ يغزو نواحِيه ولا الرَّهَقُ
في دولةٍ بحمى الإسلامِ قائمةٍ ... عنه تذود وفي دستورِهِ تَثِقُ (١٤)

عظمة إلهية:

وكان يستحضر عظمة الخالق فيما يثير إعجابه في هذا الكون، فإذا شد بصره منظر في طبيعة بلاده، راح يطلق العِنان لشاعريته لتصف ذلك المنظر المعجب، لكنه لا ينسى أن وراء ذلك الإبداع خالق هو الأحق بالإجلال، فقد رأى جبل فيفاء وقد ألقت عليه الشمس أشعتها الذهبية، فشاقه انعكاس الظلال، وشموخ الجبل، وعلى الرغم من الأثر العميق الذي انطبع في نفسه من هذا المنظر الجميل، فإنه لم ينس

مبدعه جلت قدرته:

مُتْحَفٌ من أشِعَّـةٍ وظِـلالِ ... في إطـارٍ من نَضرةٍ واخضِلالِ
سابحٌ في الفضاءِ يغْمُرُهُ النُّو ... رُ بفَيْضٍ من السَّنا والجَلالِ
يتحدَّى الذُّرى ويخترقُ السُّحْـ ... ـبَ ويزهو في عِزَّةٍ واختيالِ
صنعةُ المبدعِ المُصَوِّرِ جَلَّ اللَّـ ... ـهُ ربِّي ربُّ العُلا والكمالِ[15]

استحضر في قصائده عظمة الخالق وتمنى لو ننظر في الكون

وإذا أُعجب السِّنوسي بالإنجازات العلمية، أرجع ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى معلم العقل البشري، فقد ركب طائرة حلقت به إلى بغداد، فأبدع في وصف الطائرة إبان إقلاعها، ووصف مشاعره في أثناء ذلك، وقدم صورة عن تلك المدة الزمنية التي قضاها مع صحبه في جوف الطائرة، وعلى الرغم من انبهاره بهذا التقدم العلمي كان حسه الإسلامي يقظاً، مستحضراً عظمة الله سبحانه وتعالى، فكأنه في خضم تلك المشاعر التي انتابته - آنذاك - قد استحضر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿**ويخلق ما لا تعلمون**﴾[16] فوجد في هذه الآية ما يخفف من حدة انبهاره. يقول من قصيدته (على ضفاف دجلة):

إليكِ بَغْدادُ طارتْ بي مُجَنّحةٌ ... أعَزُّتُها حَرُّ أشْواقي وأكْبادي
فحَمْحَمَتْ ثُمّ رفَّتْ ثُمَّتَ انطلقتْ ... كنَيْزَكٍ في سماءِ الأُفقِ وَقّادِ
تَهابُها الرِّيْحُ أن تجتازها فَرَقاً ... ويَسْتَحِي كلُّ بَرّاقٍ ورَعّادِ
ونحن كالزُّغْبِ في أحشائِها زُمَراً ... جَنْباً لجنبٍ وأعضاداً لأعضادِ
نقضي السويعاتِ في أعماقِها طَرَباً ... قصفاً ورشفاً إلى ماءٍ إلى زادِ
مَنْ علّم العقلَ هذا العِلْمَ فانطلقتْ ... أجسامُنا عَبْرَ آفاقٍ وأطْوادِ
اللّهُ جلَّ جلالُ اللّهِ خالِقِنا ... سُبْحانَهُ رُغْمَ تَجْديفٍ وإلْحادِ[17]

لقد تجلى هذا الحس الإسلامي في موضوعات شعره المختلفة، إذ كان يصدر عن روح نزاعة إلى تذكر مبدعها في كل موقف من مواقف الحياة، حتى في الغزل يقف شاعرنا مندهشاً أمام فاتنة رأى أنها تجاوزت مقياس الجمال البشري، فسماها (أخت القمر)، وراح يصف أثر ذلك الجمال على قلبه الشاعري، وفي خضم فورة الشعور بهذا الجمال البشري أخذ - بحسه الإسلامي - يصل هذا الجمال بمبدعه، مسبحاً لخالقه، مجلاً إياه - يقول في (أخت القمر):

يا فتنةَ القلبِ ومَهْوى البصرْ ... جاوَزتِ مِقْياسَ جَمالِ البَشَرْ
كأنما خُيِّرتِ أنْ تُخْلَقي ... فاخْتَرتِ أحْلى وأرَقَّ الصُّوَرْ
سُبْحانَ منْ أبْدَعَ هذا الصِّبا ... وجلَّ منْ نَسَّقَ هذا الحَوَرْ[18]

الهوامش

(١) ولد محمد بن علي السنوسي في مدينة جازان في شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ.
(٢) الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، عبدالقدوس الأنصاري، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز بالتعاون مع دار العمير للثقافة والنشر، مطابع سحر، ١٤٠٣، ص١٠٣.
(٣) النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر، د. حسن الهويمل، من إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ، ص١٩٠.
(٤) الأعمال الكاملة للشاعر محمد بن علي السنوسي، منشورات نادي جازان الأدبي، مطابع الروضة، جدة، ط١، ١٤٠٣هـ، ص٣١١.
(٥) المصدر نفسه، ص٥١٥، ٥١٦.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢.
(٧) المصدر نفسه، ص٥٤١، ٥٤٢.
(٨) سورة النحل، جزء من الآية ١٢٥.
(٩) الأعمال الكاملة، ص ٧٦٠، ٧٦١.
(١٠) المصدر نفسه، ص٧٠٤، ٧٠٥.
(١١) المصدر نفسه، ص٧٠٥، ٧٠٦.
(١٢) المصدر نفسه، ص٥٥٠، ٥٥١.
(١٣) المصدر نفسه، ص٧٢١.
(١٤) من قصيدة (يا خادم الحرمين)، مخطوطة، في ٨/٢/١٤٠١هـ.
(١٥) الأعمال الكاملة، ص٣٤٠.
(١٦) سورة النحل، جزء من الآية ٨.
(١٧) الأعمال الكاملة، ص٧٧١، ٧٧٢.
(١٨) المصدر نفسه، ص٤٦٦.

خصائص العقلية الإسلامية في الإبداع الفني

بقلم/ محمد رشدي عبيد*

١ - إن العمل الفني الإسلامي يشترك العقل في إنشائه شكلاً ومضموناً، لكن أي عقل؟ إنّه العقل الإسلامي المتميز الرحب الوسيع، وليس العقل الداجن، الأسير للمألوف، الخاضع للداني القريب، المقصوص الجناح، العاجز عن التحليق، في عوالم الخيال المبدع، العقل الإسلامي هو العقل الثائر على التقليد الرتيب، الميّال إلى النقد والتجديد فلطالما وضع القرآن العقلانية في مواجهة الخضوع التقليدي، للأنماط الرتيبة المألوفة في عالم الفكر والحسّ والتجربة والخيال.. ﴿أفلا يعقلون﴾(١).

٢ - والعقل الإسلامي هو الأفضل، والأكثر حيوّية، والأشد تقبّلاً واستيعاباً وتمثلاً للحقيقة الشاملة، من العقل التقليدي الغربي المتأثر بفلسفة (أرسطو)، الذي كان يتصور العالم ساكناً، ويرى أنّ ما أمامه من مسلّمات (عقليّة) هي وحدها الحقائق الثابتة الخالدة، وأن ما سواها من قناعات الروّح، وتمنيات الخيال، وتوجهات الوجدان، إنما هي أضغاث أحلام... ولم يدُر هذا الفيلسوف أن معرفة الإنسان للحقيقة في حالة صيرورة تأريخية، دائبة النمو والتجدد والتغير، وأن وراء هذه الصيرورة والتنامي مع العقل التجريدي جيشان العاطفة وتوقها وحبها لكل جديد، وتطلّع الخيال

تفاعل العقل الإسلامي مع الإبداع الفني يطبع الناتج بالإنساني غير المتميز.

الذي لا يقنع بالمعقولات والمسلمات الشائعة، ويظل يتصور عالماً أفضل ومكتشفات أروع، وتوق الروّح إلى استظهار الحقائق المعنوية المستترة وراء الظواهر.. ولو رضيت هذه القوى بالحقائق الجزئية التي ركن إليها العقل التقليدي ونام على وسادتها المريحة، لم يكن بإمكان الإنسان تجاوز مفاهيمه القليلة الضئيلة في مجال الحياة والعلم والدين... أما العقل الإسلامي فمنذ شروقه بصياغته القرآنية قد أعلن أن الحقيقة كاملة وشاملة، ظاهرة وخافية، وأن على الإنسان أن يحاول ارتياد بقاعها الخضراء البكر، ويغوص في أعماق بحورها، بكل وسائل المعرفة المتاحة، بالعقل المجرّد، بالحواس، بالتجربة العلمية، بالبصيرة الشفافة، بالفهم العاطفي، بالشعور النقي، بالاستلهام الصادق، بالتلقي من فوق عن طريق الوحي (للأنبياء)، بالتقوى وحساسيّة الضمير نحو مسألة الخير والحق.

رؤى صادقة

...وبكشف الرؤى الصالحة والصادقة.. وكلّ هذه المصادر المعرفية محددة، أو مشار إليها في القرآن والسنّة واجتهادات الروّاد.

٣- والمعقول الإسلامي ليس معقول زمان ومكان معينين، بل هو المعقول بالطموح الإنساني اللامحدود للمعرفة، بالبصيرة النفاذة المصرّة على هتك أستار الواقع الكثيف، لمعانقة الحقيقة الكامنة فيها، بالخيال المتعمّق الوثّاب، الذي يشتد في تحليقه ورفرفته، توقاً إلى عالم أفضل، يتحرر فيه الإنسان من أحكام الضرورة، والتعلقات الضاغطة.

ولا شك أن العقل الإسلامي بصيغته هذه سيثري الفن، لأنه يجرّئ الفنان على ارتياد عوالم جديدة، ولا يثبطه أو يجمده عند نقطة المعقولات الوقتية الشائعة، خاسئاً حسيراً، بحجة أن ليس في الإمكان أبدع مما كان، أو بعذرٍ طالما تحجج به الراسخون في قيود المعقول التقليدي: وهو أن أي تصور جديد للفن شكلاً ومضموناً إنما هو عصيان ومخالفة لقرارات العقل المتلبس بالعرف المتغير.. وهكذا يطرح الفن الإسلامي (الجديد) دائماً، فإما أن يكون فيه خيرٌ عميم إذْ يتغير به واقع الجمهور الفني والحياتي نحو الأحسن، أو يأتي غثاً ضعيفاً مادة أو صورة، فيموت ويندثر ويستريح منه الجمهور والفنان وتبقى عبرته ماثلة في الأذهان!

٤ - والعقل الإسلامي بعد ليس عقلاً طبقياً محصوراً بين أطباق القيم المادية والطبقية، واعتباراتها المغلقة، وتفاعل هذا العقل مع الإبداع الفني سيطبع هذا الإبداع بطابع إنساني متميز غير منحاز.

ولا يكون غرض هذا الإبداع إلاّ أن ينفتح الإنسان على حقيقة وجوده، ويضع يده على مكامن قوته ومعالم أصالته، ويكفر بكل الحواجز المصطنعة، التي تحول بين معانقة الإنسان لأخيه وتعاطفه معه، نحو بناء مستقبل أفضل يتحقق فيه للإنسانية المزيد من تطلعاتها الخيّرة نحو السلام والعدل والحرية، وتوفير الخيرات المادية والروحية لها.. إن العقل الإسلامي الفني لا يعرف الانحياز إلاّ إلى الحق الخالص، وإن كان لا يبخل أن يلقي أضواء مركزة على الشرائح الاجتماعية والفئات البشرية الأكثر حرماناً وانسحاقاً، وضعفاً، وحيرة، وجهلاً، والتصاقاً بقاع العتمة، يضيء مشاعرها، ويثري أرواحها، ويناغي عواطفها، ويبهج أحاسيسها، بما يقدمه لها من زاد، يعينها على الانفلات من جذب القاع، وشد النقص في الروح والنفس، والحسّ والعقل.

ضيق أفق... لماذا؟

في مقابلة العقل الإسلامي الرحيب الأفق، المتجرد التوجه، لم يبرز العقل التقليدي الغربي إلاّ ضيقاً، محدوداً، ومنحازاً. لذلك خلق تدخله في الفن معارضة شديدة، وقد كان التوجه الديني من أشد المعارضين، لكن النجاح لم يحالفه، ولم يكتب لفنه الخلود، وقد يكون سبب إخفاقه كثرةُ التهاويل والغرائب وخارقات العقل، التي تميزت بها، المسيحية الداعية إلى توظيف الفن لخدمة الدين من نحو: حلول الله (تعالى) في الإنسان، والخطيئة الأزلية التي لا تستسيغها الفطرة الإنسانية النقية الكريمة..، وقد يكون سببه التصور الكنسي لعصمة القدّيسين وتعاليهم عن

(*) أديب وباحث كردي عراقي، نشرت له عدد من الدراسات والأبحاث والأعمال الإبداعية في عدد من الصحف والمجلات العربية والإسلامية.

مراودة الحياة الواقعية والحسّية، ما استتبعه من تأثم الفنان من تناولهم وعرضهم في أعمالٍ فنية وأدبية، يمارسُ فيها هؤلاء القديسون حياة اعتيادية بشرية أخلاقية، تصلح أن تكون قدوة للعاديين من الناس، الذين يأكلون ويشربون، ويتزوجون، ويجتهدون، ويخطئون، ويتوبون.. وقد عبّر عن هذا السبب أحد ناقدي فكرة الأدب المسيحي حيث قال: «أما الذي ينقص المدهش الحديث (أي المسيحي) فهو أن يكون محموماً![٢] إن (الألوهة) لا تتغير في جوهرها وعبقرية الشعراء لا تعرف إلاّ أن تؤنسن الله، وهذا كفر أو غباوة، إن ملائكتنا وقديسينا هم خلّو من الأهواء... فإذا وصفناهم في حالة هدوئهم أو غبطتهم أصبحوا أشخاصاً باردين، و إذا منحناهم حركة القلب البشري الصاخبة ظهروا بمظهر غير لائق يخالف طبيعتهم»[٣].

وبعبارة أخرى فإن المثل الأعلى للإنسان النموذج في الأدب المسيحي كان (رجل الدين) المنعزل عن الحياة، البعيد عن الواقع، المتطهر من المادة، المتبرىء من ملابسة متاع الدنيا، المحتقر للدوافع والغرائز التي تتماوج في ذاته، بما يثبط إرادة الإنسان الملتصق بالحياة الدنيا عن محاولة التأسي بمثل هذا النموذج المتعالي الذي يبالغ في السموّ الروحي على حساب حظه المشروع من زينة الحياة.

ولقد كان للتجريدات الفلسفية الصارمة، التي فكّت العناق الأبدي بين قوى الإنسان الداخلية، دورٌ في إجبار الفكر الديني على عزل نفسه عن الحقيقة الشاملة، وحرمانه من منابعها، ووسائل الوصول إليها، فالحواس انحصر دورها في تبين معالم الطقوس الدينية، وحرمت من أداء رسالتها الحياتية والجمالية، والتوجهات العلمية حوربت باسم الدين، وشُكلت لدُعاتها المحاكم. أمّا العقل فإنه أصلاً لم يقبل الدخول إلى بوابة الهيكل الديني المسيحي (القلب) لإدمانه التفلسف والتجريد والجدل المنطقي البارد، رغم محاولات (باسكال) المتأخرة...، فكيف يقدر الفكر المسيحي على إنتاج أعمال فنية وهو يلغي أو يزدري كل هذه القوى الإنسانية الصميمة، الفعّالة ويحول بينها وبين تلوين ذلك الإنتاج؟.. وكيف يتذوق ويستسيغ الجمهور مثل ذلك الإنتاج الذي هو أشبه شيء بطقس ديني ما ورائي خالص، لا تشده خيوط واضحة إلى العقل، والحس، والعلم، والواقع، ولا مصدر له سوى ما سطّر في الكتب التاريخية والدينية من معجزات القديسين وعجائب أعمالهم؟

ثم إن التراث المسيحي قد خلا من صور المواجهة الدينية الفاعلة والإيجابية والشاملة مع المتألمين والمتحكمين في رقاب البشر ومصائرها وأفكارها ومواقفها، مما يجعل الأدب الديني المسيحي خالياً من النماذج (الواقعية - الأخلاقية) المجاهدة والمواجهة للشر، بمستوى من المسؤولية والإلتزام والإعداد، يكافىء صولته وجبروته، ولا ريب أن الجمهور لا يتعاطف مع أدب مثالي قصيّ عن الواقع، أو خاضع لسلبياته، أو لا يرى فيه نفسه وأحاسيسه واهتماماته الواقعية، وتطلعاتها المائلة، ولا تشدّه إليه روابط من النسب الحركي والإنتماء الجهادي. قد تكون هذه الأسباب أو أخرى غيرها فنية أو موضوعية وراء إخفاق الفكر المسيحي في إقامة بنيان أدبي ديني.

هذا العذاب الكبير

يواجه أدب المذهب الاتباعي التقليدي، المطعّم بالأساطير الوثنية المشدود إلى المعقولات الأرسطيّة.. ولكن أدباً إسلامياً معاصراً واعياً، مستمداً من التوجه الإسلامي الصحيح لن يمر على هذه الأشواك، ولن تدميه رؤوسها المدببة.

سيمدُّ جسوره مع الواقع والحياة على أعمدة التوحيد والعقلانية المسلمة، والواقعية الإيجابية، والأخلاقية القائمة على ثبات القيم ومرونة الاجتهاد في تفسيرها وتنفيذها، والتوازنية في النظر إلى قوى الإنسان الداخلية.. كما أن التأريخ الإسلامي حافل بالصور واللقطات، والمواقف القيادية والفردية الملتزمة، والمواجهات الحارة والدامية مع الباطل، والتجارب الاجتماعية الثرة العميقة الغنيّة بالرؤى والقيم النبيلة، والعطاءات الروحية الثرية، التي من شأنها جميعاً أن تمد هذا الأدب بمادة طيبة ومؤثرة، فيكتسب كل سمات التأثير في الواقع الإسلامي الاجتماعي العريض. ذلك العقل الإسلامي الواسع الممتد المصوغ وفق الرؤية الإسلامية المبصرة بأحداق الوحي الصادق، التي توزع الأضواء والظلال على عوالم الفكر والنفس والعاطفة من السقوط في التهافت والهبائية والتطاير، إذ أن عواطف (الرومانسيّين) لم تثبت على قرار من العقل الحكيم، أو الوحي الأمين أو العلم المبين، فهوت إلى قرار سحيق، وانقلبت في نفوسهم عذاباً وحسرة، وخلقت في عقول جمهورهم وأرواحهم ريبة وشكاً، وضلالاً وأسىً مستديماً، وحتى كان بوسع العاطفة تسويغ آلام الإنسان وترضيه بتحمّل أعباء الكدّ والجهاد الناشط، إنما ذلك بوسع المنهج الديني العلمي الصحيح المتمثل في الإسلام، وكيف يقبل العقل الانسياق وراء سراب العواطف الهائمة، الخارجة عن سياق العقلانية الرشيدة، والحكمة السديدة، والحقائق الدينية النقية؟ ولا بدّ للعاطفة الممعنة في الانثيال السائل، والتخيل السادر، من علم يحدد وينظم جريانها ضمن ضفافه الآمنة. صحيح أن العاطفة هي الطاقة الباطنية، التي تنضج العمل الإبداعي الإسلامي، لكن العاطفة السائبة لا قيمة لها في الفن الإسلامي ولا حقّ لها في الإبحار وحدها، أنىّ شاء لها الهوى، كي لا تضلّ ولا تغرق فالعاطفة الإسلامية تتفاعل أولاً مع سائر قوى الإنسان الأخرى الداخلية، ثم يحق لها أن تتسرب ضمن قنوات هادفة ومعقولة ومعلومة، لا بالنظرة الفلسفية العقلية التي لا تؤمن إلاّ بالمقررات العقلية المألوفة القابلة للتغيير أو بالنظريات العلمانية القاصرة، التي لا تثق إلاّ بعلوم الحواس والتجارب المادية بل بالعقل الإسلامي العلمي الغائي، الذي يتعامل مع الوجود في حالته الشاملة الموحدة، ويحتك بالحقيقة في صورتها الكاملة، سواء في وجهتها المنزلة، أو في وجهها المكتشف بجهد الإنسان المادي والروحي، لا كما يتعامل غيره معها وهي مفككة، مجزأة الأوصال، عديمة الروح، يتقاسمها المدرسيّون من الفلاسفة،

كثرة التهاويل والخوارق والطقوس حرمت الأدب الغربي من أداء رسالته في الحياة.

الوضعيّون، والتجريبيون، والماديون، كل قد وضع جزءاً منها على رأسه، بلا حياة تكاملية، متناغمة، مضيئة..، أوصال وأشلاء، عقل، وعاطفة، وروح، وخيال، إنه تفكيك للحقيقة يذهب ببهائها ونضارتها وحيويتها، إن كان مجدياً لأغراض الدراسة والبحث، فإنه لا يغني شيئاً في عملية الإبداع، الصادرة من التعامل الإنساني الشامل الحي مع الحياة والحقيقة، الإسلام هو الذي يعيد شد هذه التفاريق والمواد البنيوية، ويطلقها في طريق البناء الفني الهادف، عبر محطات الشوق والولع الإنساني، باكتناه جماليات الحقيقة وجوهرها وصياغتها في أعمال فنية ناضجة خالدة.

الهوامش

(١) يس (٦٨).

(٢-٣) فان تيغم/ المذاهب الأدبية الكبرى ص١٥٦.